

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَهْدِيَنَّ الْبَشَرَ (العنكبوت/ 61).

وقال إِبْرَاهِيمُ سُبْحَانَهُ كَذَلِكَ: (وَلَقَدْ سَأَلَتْهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَهْدِيَ اللَّهُ الْبَشَرَ...) (العنكبوت/ 63). هذه الفطرة الطبيعية لدى الإنسان هي من أَلطافِ اللَّهِ تعالى ومن ثمَّ إرسال الرسل وبعث الأنبياء (عليهم السلام) والكتب المقدسة لهدايتنا وقد يسّر لنا معرفة أحكام الدين وطريق الخلاص والنجاة. وقد جاءت كتب السماء تتويجاً للفطرة الإنسانية النقية.

حجة إِبْرَاهِيمَ على العباد النبيِّ والحجة فيما بين العباد وبين إِبْرَاهِيمَ العقل فالعقل هو الهدية الإلهية العظمى للإنسان فلولاها لما استقام إنسان على دين ولا آمن برسالة يقول الرسول الأعظم (ص): "قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له" وهكذا فإننا نجد في كلِّ شيء في الوجود لطف إلهي واضح ومثال على الطبيعة مثلاً الهواء فإنَّه يتكون من عدة عناصر بنسبٍ محدودة فمثلاً الأوكسجين نسبته في الحالة الطبيعية 21% فلو صعدت النسبة إلى 30% أو نزلت إلى 10% لارتبكت الحياة على الأرض لأنَّ الإنسان والحيوان والنبات كلٌّ منهم يعتمد عليه لأجل البقاء. ومن خواص الأوكسجين إنَّه يساعد على الاشتعال فلو صعدت النسبة لاشتعل المكان الذي تظهر فيه شرارة عود الكبريت.. بينما تتدخل أَلطافُ اللَّهِ التي لا تحصى ونعمه التي لا تعد بتثبيت النسبة وليستفيد النبات من ثاني أوكسيد الكربون المفلوظ من قبل الحيوانات وليستفيد الحيوانات من الأوكسجين للتنفس.. في علاقات تبادل المنفعة فيما بين الكائنات وكذلك الحالة التكاملية في الطبيعة متزنة بميزان دقيق الواحد يخدم الآخر بحدود معينة سبحانه الخالق الكريم حيث يقول: (وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) (الرحمن/ 7)، وقال في سورة البقرة، آية 164: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلُوكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَنْبَتَ بِهِ الْأَرْضَ بِغَيْرِ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ).

وقاعدة اللطف الإلهي هذه تتناول الحياة السلوكية للإنسان أيضاً فإِبْرَاهِيمُ سُبْحَانَهُ ما خلقنا عبثاً وإنما لغاية شريفة فهو القائل جلَّ وعلا: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56)، وقال أيضاً: (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ) (الأنبياء/ 16).

وشرَّعَ اللَّهُ للناس العبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة ووضع العقوبة المناسبة للمخالفين والمسيئين وقانون الحدود والتعزيرات للمعتدين والاثمين لغرض ضمان الاستقامة بالحياة ورفع الظلم والحيث.. وبالنسبة للعاصمين يعطيهم إِبْرَاهِيمُ أملاً متجدداً بين آونة وأخرى بالتوبة الصادقة وخاصة في هذا الشهر العظيم الذي يمكن أن نجد البيعة من إِبْرَاهِيمَ سُبْحَانَهُ في العبادة المخلصة في هذا الشهر الكريم من صيام وصلاة والتزام بالسلوك الإيماني وهذه القاعدة المباركة نطمح أن تشملنا بعنايتها في الدنيا والآخرة.

ومن أَلطافِ اللَّهِ إنَّه سنَّ لنا العبادة وأوضح لنا التوبة من الذنوب وشهر الصيام من أَلطافِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فإنَّه متميز تماماً عن بقية الشهور وكما قلنا أنَّ أيام الصيام هي مرحلة تطهير الإنسان من الذنوب العالقة طيلة أيام السنة فإنَّ مغناطيسية الدنيا تسحب الإنسان نحو الهوى وتنسيه من التفكير الإيجابي لأنَّ آفة الإنسان النسيان فيأتي الصيام ليعيد التذكير الإيمانية للإنسان والمجتمع فتحرق الذنوب وفي الأثر المقدس "من صام شهر رمضان إيماناً واحتساباً غفر إِبْرَاهِيمُ ما تقدم من ذنبه".

وفي هذا الشهر هنالك الامتيازات للصائم والمصلي والعابد كلها من أَلطافِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فلندخل الآن بعد هذه المقدمة إلى صميم الموضوع - وبودِّي أن أتناول خطبة الرسول الأعظم (ص) مقطعاً مقطعاً علنا نستفيد منها في هذا الشهر العظيم في زمن الأزمة الخلقية والأزمة النفسية فهذه الخطبة المباركة تعدُّ وثيقة تربوية خلقية للمسلمين وضعها الرسول الأعظم (ص): (وَمَا يَنْطَلِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) (النجم/ 3-4).

فإلى المقطع الأوَّل من هذه الخطبة الرائعة.. "أيها الناس إنَّه قد أقبل إليكم شهر إِبْرَاهِيمَ بالبركة والرحمة والمغفرة شهر هو عند إِبْرَاهِيمَ أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات...".

أيها الناس نداء عام لكلِّ المجتمع فإنَّ الدعوة مفتوحة للجميع بماذا؟ بزمن كريم متميز أقبل إليكم فتهيئوا له نفسياً هذا الزمن منسوب إلى إِبْرَاهِيمَ عزَّ وجلَّ فهو شهر إِبْرَاهِيمَ يمتاز بالبركة والرحمة

والمغفرة فهو مبارك بالنعم ومتميز بالخيرات ورحمة إلهية عامة للصائمين لتسهيل الفريضة ومدّ الصائمين بالقوة والصبر وأيضاً هنالك مغفرة وتجاوز للذنوب والمعاصي الماضية للصائم وذوي العلاقة به من الأموات والأحياء فإنّ سبحانه معطاء كريم نقرأ في الدعاء "يا من يعطي من سألّه ويا من يعطي من لم يسألّه ومن لم يعرفه تحنناً منه ورحمة...".

وفي هذا الشهر المتميز على الشهور الأخرى فالعطاء أكبر والمغفرة أوسع فهو عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام بل وساعاته أفضل الساعات هذه الأفضلية في المنظار الإلهي واضحة المعالم وسببها لأنّ هذا الشهر يحتوي فريضة الصيام أو لإنزال الكتب المقدسة فيه، المهم أن الله سبحانه أراد لهذا الشهر هذه الأفضلية المعطاءة.. هو شهر دعيت فيه إلى ضيافة الله وجعلتم فيه من أهل كرامته. الله ما أجمل هذا التعبير الدقيق بالفعل إنّنا مدعون لضيافة الله ونحن في طريق تلبية دعوة الخالق الكريم نتساءل ألسنا نحن في كلّ الحالات في ضيافة الله فهذه النعم وهذه البركات والقدرات على الانتفاع من الطبيعة في الاستهلاك للأكل والشرب والتنفس... هل من زيادة على هذه الضيافة؟ أجل إنّها ضيافة من نوع جديد لا كما نفهم عن الضيافة نحن في الأكل والشرب والمشي على الأرض ضمن ضيافة عامة وإنّما هنالك ضيافة خاصة للصائمين والمؤمنين وأكثر من ذلك جعلنا من أهل كرامة الله في هذا الشهر الكريم أما عناصر هذه الضيافة وألوان العطاء الرباني يحدثنا الرسول عنها "أنفاسكم فيه تسبيح ونومكم فيه عبادة وعملكم فيه مقبول ودعاؤكم فيه مستجاب" هذه الضيافة خارجة عن فهمنا الطبيعي إنّها إعداد جزيل للدار الآخرة التي تشكل الطموح الحقيقي للإنسان المؤمن فالأنفاس الصاعدة والنازلة - في هذا الشهر تحسب تنزيهات الله أي تسبيحات تسجل في سجلات المؤمنين تسبيحات الصائمين ولها أجرها الكبير. والنوم في هذا الشهر يحسب عبادة والعمل فيه مقبول والدعاء لنفسه أو للآخرين مستجاب.

فعلاً فرصة نادرة في الحياة ولا بدّ من اغتنامها، هل لاحظتم تنزيلات وتخفيضات في السلع التجارية كيف يتهافت الناس لاستغلال الفرصة؟ بالفعل شهر رمضان تخفيضات للشروط بشكل واضح فلا خيار أمام المؤمنين إلا اغتنام الفرصة "فاسألوا الله بنيات صادقة وقلوب طاهرة أن يوفقكم لصيامه وتلاوة كتابه فإنّ الشقي من حرم غفران الله في هذا الشهر العظيم" القصد الصادق التوجه إلى الله بصدق النية وبقلب خالٍ من الأدران والآثام لأجل التوفيق الإلهي للصيام وقراءة القرآن فالمؤمن بحاجة إلى التوفيق من اليد الإلهية الغيبية لتأدية الواجبات الشرعية، وفي الحديث "المؤمن يحتاج إلى ثلاث خصال: توفيق من الله وواعظ من نفسه وقبول ممن ينصحه" وهذا التوفيق يحصل لدى الإنسان صافي النية وطاهر القلب. أما الشقي أي التعيس وغير السعيد فإنّ الله سيحرم من مغفرة الله ورضاه في هذا الشهر العظيم فلعظمة العطاء وتسهيل رضى الله في مناجات إيمانية مهيئة للتوبة والاستغفار والاستقامة وللضيافة المفتوحة والمتميزة بالفعل أنّ الذي لا يستفيد من هذه الفرصة الذهبية يعد من الأشقياء.

وهكذا يعتبر الإسلام شهر رمضان موسماً بادياً خاصاً فلا بدّ من التعامل معه بصدق وإخلاص وتفاؤل وانسجام كي تتم الفائدة المرجوة في الدنيا والآخرة بينما الذي نشاهده وللأسف لدى شريحة من المجتمع وربما الشريحة الكبرى طاهرة الازدواجية في الشخصية بشكل واضح فيمارس الدورين دور المتقي الصائم ودور انحرافي في السلوك بشكل ملموس وليس هذا مجال حديثنا وإن كان من اهتماماتنا الأساسية - فنلاحظ أمام النشاط الديني تنشط الشياطين أيضاً لتأخذ قسطاً من وقت الصائمين للأسف! فتلهيهم في ليالي اللعب والسهر العاثر.. هذه الحالة ربما تتكرر في كلّ يوم ففي النهار صيام وتلاوة قرآن أي ساعات رحمانية بينما في المساء تكون الساعات شيطانية.. وربما تظهر الإزدواجية هذه في مظهر أفضل وذلك استمرار الساعات الرحمانية في أيام رمضان وبمجرد أن ينقضي هذا الشهر الكريم تنطوي الحالة المقدسة وتعود الحالة التي سبقت شهر رمضان وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً دون أن يستفيد من هذه المحطة الربانية خارج شهر رمضان وبعض الناس بسلوك غريب جداً يتصور نفسه كالطفل فيفرح بحلول الشهر المبارك كما يفرح الأطفال ويعد معدته بالأكل والشرب فيحضر ويدعو أيضاً لحفلات الطعام المترق والمتنوع ويتوج فرحته في يوم العيد كالأطفال بالضبط ومن المؤكد إنّ الله غير مرتاح نفسياً ووخز الضمير يؤنبه على هذا السلوك دوماً.

وبعض الصائمين لا يجرؤ أحد أن يتكلم معه لسوء خلقه في هذا الشهر لأنّ الله صائم فلا أمّ ولا زوجته ولا ابنه يستطيعون التحدث معه خاصة بعد الظهر.

وأظن أنّ هذه نتائج طبيعية تظهر للعيان عند غياب المعرفة الحقيقية لهدف الصيام أما بعض المفطرين والعابثين نراهم يتخاصمون على هلال العيد ويوم العيد ووقت الإفطار أكثر من الصائمين يبدو لسد نقصهم يقول الشاعر:

شباب طائش نزع *** وشيب ما بهم رفق

وشعب طالب ثقة *** فدلوه بمن يثق

هذه صورة من الازدواجية في شخصية المسلم المعاصر من الطبيعي أنّ الصّوحة الإسلامية اليوم قد أظهرت الحقيقة وحالة الازدواجية متقلصة أمامها والذي يبحث عن الحقيقة يجدها .

والتذرع بسلوك الآخرين المنحرفين كتبرير لانحرافنا غير نافع وإنما لابدّ للإنسان بنفسه أن يطهّر داخله وأفضل فرصة في هذا الشهر العظيم فباطن الإثم يخلق حالة الازدواجية ففي لحظات الإيمان والطاعة تتوفر النيات الصادقة في الوقت ذاته تطهر القلوب من تراكمات الماضي والسؤال كيف نستطيع أن نمدد هذه اللحظات الإيمانية؟ بهذه النيات الصادقة والقلوب الطاهرة من الأغلال والآثام إلى تمام شهر رمضان بل لتمام أيام السنة بمعنى آخر نحوّل هذا الخلق النبيل والطهارة القلبية إلى ملكة مترسّخة في ذواتنا متخلصين من أمراض النفس وحالة الازدواجية والإثم الباطن وهذه بعض النقاط التي تخص موضوعنا:

أ) التعرف على أسباب حصول النية الصادقة والعوامل المؤثرة فيها والفوائد التي يجنيها من النية الصادقة، فالتوجه إلى الله بإخلاص للعبادة والصوم بالذات في هذا الشهر والطمع في مغفرته وعفوه وكذلك المحاسبة الدائمة للنفس وتلقين بالمحاسبة الإلهية الدقيقة لكل الأعمال الصالحة والطالحة ففي هذا الشهر أنفاس الملتزمين تسبيح ونومهم عبادة وعملهم مقبول..

بالنتيجة هذه المحاولة الجادة تستهدف إيجاد المناخ المناسب لهذا الصفاء فلا بدّ من استمرار النية الصادقة بمعرفة الأسباب والعوامل المؤثرة والفوائد المجنية - وهذا المناخ الإيماني يمكن إيجاده بشكل أو بآخر في أيام السنة الأخرى ولهذا نلاحظ التأكيدات في الشريعة على استحباب الصيام في شهر رجب وشعبان. فكلما نرى الشياطين في حالة تأهب لافتراسنا لابدّ أن نلجأ إلى الصلاة والصوم وقراءة القرآن والأدعية اليومية.

ب) قراءة السير وعواقب الأثام في القرآن الكريم وقصص الصالحين والأنبياء أي دراسة عواقب أمور الناس - والسعيد مَنْ اتعظ بتجارب غيره - لاكتشاف الحكمة من الاستقامة والالتزام - هذا لنوع من الدراسة الواعية تتيح للإنسان المؤمن ديمومة النوايا الصادقة والقلوب الطاهرة بل وحتى في قصص المنحرفين نأخذ العبر منهم. وفي الأثناء يُنقل أنّ تاجراً كبيراً طرّق على باب مسكين وطلب العون منه صرخ في وجهه فالتفت المسكين مخاطباً التاجر أما تخاف أن تصبح مثلي وإنّ الله قادر على ذلك فصرخ به أيضاً قائلاً لو أراد الله أن يفكر لأصير مثلك لاحتاج إلى تفكير سنتين! وبالفعل إنّ الله عند المنكسرة قلوبهم.. وفوراً يأتي الخبر بأنّ ابن التاجر مع ابن الملك كانا في رحلة صيد وبالخطأ يسدّد ابن التاجر سهمه ليضرب الفريسة فيقتل ابن الملك الوحيد فيتهسّر الحاكم ويصادر أموال التاجر المنقولة وغير المنقولة ويطرد من محله التجاري ليعبر الشارع ويرى المسكين فيقول له إنّ الله لا يحتاج إلى تفكير سنتين لتحويل الغني إلى الفقير.